بسم الله الرحمن الرحيم

مدنٌ من الثلج ومدنٌ من الجليد

الحمدُ لله...

أسرار تحت القشرة الأرضية!

ضرب الأرضَ اليوم ظواهرُ مناخيةٌ عاصفةٌ غيرُ مسبوقة، تهزُّ أرجاء قارتين بأكملهما، وتُعلَن بسببها الطوارئ في عشرات الولايات، أحداثٌ مفاجئةٌ ترفع صوتها عاليًا، فتُذكِّر الإنسان بضعفه، وتكشف له أن هذا الكون ليس طوعَ إرادته، ولا خاضعًا لعلمه مهما بلغ.

تابع الناس أخبار هذه العاصفة العاتية، فأيقنوا أن ما رأوه ليس إلا جزءًا يسيرًا من مشهدٍ أعظم، فكم من أسرارٍ تجري تحت قشرة هذا العالم لا نعلم عنها إلا القليل، قد نفسّر حركة الرياح، ونشرح دوران العواصف، ونتحدث عن التيارات القطبية، ونسهب في الكلام عن حرارة المحيطات، غير أن الحقيقة الأعمق تبقى ثابتة: أن لهذه التقلبات ربًا يسوقها حيث يشاء، ويصرّفها كيف يشاء، فهي جندٌ من جنود الله، لا تأتي عبثًا،

ولا تهب مصادفة، بل تحمل في مسارها حكمة، وفي شدتها عبرة، وفي وقوعها رسالة.

قارة تُثلِج وقارة تتجمَّد!

ففي الأسبوعين الماضيين تابع العالم ما جرى في روسيا أولًا، ثم في الولايات المتحدة ثانيًا، غير أن طبيعة البلاء اختلفت، ففي روسيا تسود العواصف الثلجية ذاتُ التراكمِ الكثيف، حيث تتكدس الثلوج بكميات كبيرة تؤدي إلى تعطّل شبكات النقل وعزل المناطق، ويتركز الخطر في الضغط على المباني والطرق أكثر من تركّزه في انهيار الطاقة.

أما في الولايات المتحدة، فالعواصف شتاءٌ متجمّد، وجليدٌ يغلّف الأسطح، فيُثقِل الأشجارَ، وتنهار شبكات الطاقة والتدفئة، وينكشف السكان مباشرةً للبرد القارس داخل منازلهم، وهو ما يفسّر ارتفاع معدلات الوفيات.

وقد امتد أثر هذه العاصفة إلى ملايين البشر، فانقطعت الكهرباء عن أكثر من نصف مليون مِنزل ومُنشأة، في درجات حرارة متدنية عن الصفر، وتوقف عن الإقلاع آلاف الطائرات، وتجمدت المياه في الشوارع، وخسرت البلاد مليارات الأموال،

وعمّ الشلل مظاهر الحياة، فلا مدارس ولا نقل عام، فكأن المشهد حربٌ شاملة لا سلاح فيها.

ومع ذلك كلّه، تبقى الرسالة واحدة: أن هذا الكون ليس ملكَ الإنسان، بل هو ملكُ الله، وأن ما عند البشر من قوةٍ وعلمٍ وتقنية لا يساوي شيئًا إذا أذن الله لأمره أن يكون.

ويزداد المعنى وضوحًا حين نتذكّر قول النبي ﷺ: "اشتكت النار إلى ربها، فأذن لها بنَفَسين: نفسٍ في الشتاء، ونفسٍ في الصيف"[1]، فنرى في زمهرير الشتاء، وفي لفح الصيف، طَرَفًا لا يُذكَر من أثر ذلك النَفَس، آيةً من آيات الغيب، ودليلًا على صدق الخبر، وصدق النبوة.

ملاحدةٌ يقرون بنهاية العالم!

إن الإقرار بأن لهذا العالم نهايةً لم يعد حِكرًا على المؤمنين، بل أصبح حاضرًا حتى في الرؤى الإلحادية المعاصرة، غير أن الفرق الجوهري ليس في أصل الإقرار، بل في كيف تكون النهاية؟ وما هو معناها؟

---

(١) رواه مسلم.

فالملاحدة يؤمنون بنهاية العالم إيمانًا ماديًا، قائمًا على نماذج علمية وتوقعات فيزيائية، يرون فيها أن الكون قد ينهار نتيجة اختلالٍ مناخي، أو فناءٍ حراري، أو تصادمٍ كوني، دون غاية من الخلق، فالنهاية عندهم حدثٌ أعمى، لا يترتب عليه حساب ولا مسؤولية.

أما الإيمان الإسلامي بنهاية العالم، فليس فرضيةً علمية ولا احتمالًا مفتوحًا، بل يقينٌ غيبيٌّ ثابت، أخبر به الوحي، وجعل له غايةً ومعنى، فيوم القيامة ليس توقفًا للنظام الكوني فحسب، بل انتقالٌ من دار العمل إلى دار الجزاء، حيث يتحقق العدل الإلهي، وتُستكمَل الحكمة من الخلق بمحاسبتهم.

ومن هنا فإن ما نشهده من اضطراباتٍ مُناخية غير مسبوقة يفهمه المؤمن بأنه تذكير باقتراب الفناء في صورته الكبرى، أما زمن هذا الفناء، ومتى يكون؟ فالله أعلم به.

أثر التصديق بنهاية العالم بين الملاحدة وبين المسلمين!

إن تصور نهاية العالم ينعكس مباشرةً على روح الإنسان وسلوكه، فالملحد حين يرى النهاية فناءً محضًا، تصبح الحياة عنده تجربةً مؤقتة بلا غاية، فيورثه ذلك قلقًا وخوفًا من العدم،

أو تعلّقًا محمومًا بالمادة والمتع الزائلة.

أما المسلم، فيؤمن بأن النهاية حسابٌ وعدل، لا عبث ولا فوضى، فيمنحه هذا التصديق طمأنينةً داخلية، ويجعله ينظر إلى الحياة بوصفها مسؤوليةً واختبارًا، فيصبر عند الشدائد، ويضبط أفعاله، ويحرص على الخير، لأنه يعلم أن عمله محفوظ، ولن يضيع بزوال الدنيا.

تجمد وقيظ!

وفي غمرة هذا التجمّد القاسي الذي تعيشه قاراتٌ بأكملها، ثلوج تُطغى في الشمال، وجليد يعطّل الحياة في الغرب، نجد في الوقت نفسه قاراتٍ أخرى تعيش على النقيض تمامًا، فبعض مدن أستراليا -في هذه الأيام نفسها- تسجّل درجاتُ حرارة تقارب أربعًا وأربعين درجة مئوية، حيث القيظ الشديد، والشمس المحرقة، في وقتٍ يعاني فيه غيرهم من الصقيع القاتل، وكل ذلك على كوكبٍ واحد وفي زمنٍ واحد.

وهذا التفاوت الحاد في اللحظة نفسها، ليس مجردَ ظاهرةٍ مناخية، بل مشهدٌ كوني يكشف كيف يجمع الله بين الأضداد، فيُري قومًا شدة البرد، ويُذيقُ آخرين شدة الحر، دون أن يختلط

هذا بذاك.

منظرٌ من أعلى النعيم على قعر الجحيم!

وهذا الجمع بين الأضداد مشهدٌ كونيٌّ يهيّئ القلوب لفهمِ مشهدٍ أعظم، أخبر به القرآن، مشهدٌ لا يقع في الدنيا، بل في الآخرة، قال الله عن واحد من أهل الجنة وهو مع أصحابه متكئين على الأرائك، يقول: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ الصافات، رجلٌ في نعيمٍ مقيم، آمنٍ مطمئن، ثم يُمَكَّن -بإرادة الله- من أن يطّلع على صاحب السوء، الملحدِ في إيمانه، والكافرِ بربه، فيراه في سواء الجحيم، وأصل قعر الحطيم، وهذا المؤمن في مكانه لا يمسّه من حرّ الجحيم شيء، ولا ينقص من نعيمه أدنى نقص، لأن الذي جمع بين الحرّ والبرد في الدنيا، وجمع بين المتناقضات في اللحظة الواحدة، قادرٌ على أن يجمع في الآخرة بين تمام النعيم وتمام العذاب، مع الفصل التام بينهما، رؤيةٌ بلا مشاركة، واطلاعٌ بلا انتقال، ليظهر كمال القدرة، ويتجلّى العدل، وتنكشف عاقبة اليقين

والإنكار.

نسأل الله أن يجعل ما نراه عبرة لا نقمة، وتذكرة لا عذابًا، ورحمة لا هلاكًا، وأن يحفظ العباد والبلاد، وأن يجعلنا من المتدبرين في آياته، المتواضعين لعظمته.

وكُتِبَ في ١١ / ٨ / ١٤٤٧

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد